أيام الطواف

لايدهشك أيها القارىء أن نضع لعبث ابن ابى ربيعة هـذا العنوان الغريب ، فقد كان يتخذ أيام الحج موسماً للهو والمجون ، وإنه ليقول

أيها الرائح المجدُّ ابتكارا ... قدقضى من تهامةَ الاوطارا

من يكن قلبه صحيحا سليما ... ففؤادى بالخيف أمسى مُعارا

ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا ... كلَّ يومين حِجةً واعتمارا(١)

وقد أنشد ابن أبي عتيق هذا الشعر فقال له : الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتمَّ لك فِسقك ! وأنشده عبد الله بن عمر فقال : يا ابن أخى ! أما اتقيت الله حيث تقول :

ليت ذا الدهر كان حتما علينا ... كل يومين حجةً واعتمارا

فقال له عمر : بأبي أنت وأمى ! إني وضعت ليتا حيث لاتغنى .

بَيْد أنه لايصح لنا أن ننسى أنه لم يكن يفوز فى كل مرة بما يبغى

(١) قال عمر هذا الشعر في أم عمرو بنت مروان وكانت بعثت اليه بألف دينار ورجته أن لايذكرها في شعره ، فقبلها واشترى بها طيباً فأهداه اليها فردته ، فقال إذاً والله أنهبه الناس ، فيكون مشهوراً ، فقبلته

شيطانه من زيارة تلك المناسك والتعرض لكرائم النساء . فقد رُوى أن امرأة جميلة قدمت مكة ، فنظر اليها وهو يطوف فوقعت فى قلبه ، فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه . فلما كان فى الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها ، فقالت له : اليك عنى يا هذا فانك فى حرم الله وفى أيام عظيمة الحرمة ! فألحّ عليها يكلمها حتى خافت أن يشهّرها . فلما كانت الليلة الاخرى قالت لأخيها : أُخرج معى فأرني المناسك فانى لست أعرفها ، فأقبلت وهو معها ، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها ، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها ، فتمثلت المرأة بقول النابغة .

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ وتتقى صولة المستأسد الحامى

وقد قال المنصور حين حُدِّث بهذا الخبر : وددْت أنه لم تبق فتاة من قريش فى خِدرها إلا سمعت بهذا الحديث

* * *

وقد وقع له مثل هذا مع أبى الاسود الدؤلى إذ حجّ ومعه امرأته ، وكانت جميلة ، فبينما هى تطوف بالبيت إذ عرض لها ، فأتت أبا الاسود فأخبرته ، فأتاه أبو الأسود فعاتبه . فقال له عمر : ما فعلت شيئاً . فلما عادت إلى المسجد عاد فكلمها . فأخبرت أبا الأسود فأتاه فى المسجد وهو مع قوم جالس فقال له :

وإني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتُقْيا وأنني كريمٌ ومثلي قد يضر وينفع (١)
فشتان ما بيني وبينك انني على كل حال أستقيم وتظلعُ (٢)

فقال له عمر : لست أعود يا عم لكلامها بعد هذا اليوم . ثم عاود فكلمها ، فأتت أبا الاسود فأخبرته ، فجاء اليه فقال له :

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى وسيدنا لولا خلائق أربعُ
نُكُولٌ عن الجُلّى وقرب من الخنا
وبُخلٌ عن الجدوى وأنك تُبّع (٣)

ثم خرجت وخرج معها أبو الاسود مشتملا على سيف ، فلما رآهما عمر أعرض عنها ، فتمثل أبو الاسود

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

وإن له لحوادث أشنع من هاتين فى الضّياع ، فقد رأى امرأة من العراق وهو يطوف فأعجبه جمالها ، فمشى معها حتى عرف موضعها ، ثم أتاها فحادثها وناشدها وناشدته ، وخطبها فقالت : ان هذا لايصلح ها هنا . ولكن إن جئتنى إلى بلدى وخطبتنى إلى أهلى تزوجتك . فلما

(١) القيا : هى الرحمة والاشفاق (٢) الظلع : العرج والغمز في المشى
(٣) التُبّع والتِّبع هو الذى يجدّ فى طلب النساء

ارتحلوا جاء إلى صديق له من بنى سهم وقال له : إن لى اليك حاجة أريد أن تساعدنى عليها . فقال له : نعم ، فأخذ بيده ولم يذكر له ما هى . ثم أتى منزله فركب نجيبا له وأركبه نجيبا آخر ، وأخذ معه ما يصلحه ، وسارا لايشك السهمى فى أنه يريد سفر يوم أو يومين ، فما زال يسرع حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها ، وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق . فاقام أياما ثم راسلها يتنجزها وعدها ، فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم وبماله اليها ما لم تتزوج ، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة ، وبعثت اليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت ، فردها عليها ورحل إلى مكة ، وقال فى ذلك :

نام صحبي ولم أنَمْ ... من خيال بنا ألَمّْ
طاف بالرَّكب مَوْهِناً ... بين خاخٍ إلى إضَمْ (١)
ثم نبهت صاحباً ... طيِّب الخيم والشّيَم (٢)
أريحيًّا مُساعداً ... غير نِكْس ولا بَرَم (٣)

(١) خاخ : موضع بين الحرمين ــ واضم : واد بجبل تهامة ، وهو الوادى الذى فيه المدينة (٢) الخيم بالكسر السجية ــ والشيم جمع شيمة وهى الطبيعة
(٣) النكس بالكسر الضعيف ــ والبرم بفتحتين الذى لاينفع فيه

قلت يا عمرُو شفّنى لاعجُ الحب والألم
إيتِ هنداً فقل لها ليلة الخيف ذى السَّلَم[1]

* * *

ويظهر أن الخيبة التى رمته بها تلك السيدة العراقية جعلته يتردد في متابعة المِلاح إلى العراق . فقد تشهّت فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية أن يتبعها ليتزوجها هناك ، ولم نعلم أنه هشّ لتلبية ذلك النداء . ومن قصته معها انها حجت فراسلها ووعدها أن يتلقاها مساء الغد ، وجعل الآية بينه وبينها أن تسمع ناشداً يَنشُد بغلته فى زقاق الحاج ، ان لم يمكنه أن يرسل رسولا ، يُعلِمُها بمصيره إلى المكان الذى وعدها .

فلما تلاقيا وتحادثا خطبها فقالت : أما هاهنا فلا سبيل إلى ذلك ، ولكن إن قدمت إلى بلدى خاطبا تزوجتك . وقد قال فى وصف ما كان بينهما من التراسل والتواعد والتّلاق :

تشط غداً دار جيرانتا وللدارُ بعد غدٍ أبعدُ

(١) لم نقف على بقية هذه القصيدة

إذا سلكت غمر ذى كندة ... مع الركب قصد لها الفرقد (١)
عراقية وتهامى الهوى ... يغور بمكة أو ينجد (٢)
وحث الحداة بها غيرها ... سراعا إذا ما ونت تطرد (٣)
هنالك إما تعزى الفؤاد ... وإما على إثرها تكمد
وليست ببدع إذا دارها ... نأت والعزاة إذا أجلد
صرمت وواصلت حتى دام ... ت أين المصادر والمورد
وجربت من ذاك حتى عرفـ ... ـت ما أتوقى وما أعمد
دعانى من بعد شيب القذا ... لر رئم له عنق أغيد (٤)
وعين تصابى وتدعو الفتى ... لما تركه للفتى أرشد
فتلك التى شيعتها الفتاة ... إلى الخدر قلبى بها مقصد
تقول وقد جد من بينها ... غداة غد عاجل موقد
ألست مشيعنا ليلة ... نقضى اللبانة أو نعهد
فقلت بلى قل عندى لكم ... كلال المطى إذا تجهد

(١) غمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين ــ الفرقد نجمان في السماء من نجوم الدب الاصغر وهى في الشمال . ويقال لها الفرقد بالافراد والفرقدان بالتثنية . ومعنى أن الفرقد قصد لها أنها تتجه اليه . لان العراق في الشمال الشرقى من مكة (٢) يغور : يأتى الغور وهو المطمئن من الارض ــ وينجد : يأتى النجد وهو ما غلظ من الارض وارتفع (٣) الحداة : ساقة الابل الذين يتغنون لها لتنشط في السير ــ وتطرد : تساق (٤) القذال كسحاب جماع مؤخر الرأس

فعودى إليها فقولى لها مساء غدٍ لكم موعد
وآية ذلك أن تسمعى إذا جئتكم ناشداً ينشُد
فرُحنا سراعاً وراح الهوى إليها دليلا بنا يقصد
فلما دنونا لجرس النُّبا ح والضوء والحىُّ لم يرقدوا(١)
نأينا عن الحىّ حتى إذا تودّع من نارها المَوْقِد(٢)
وناموا بعثنا لها ناشداً وفى الحىِّ بغية من ينشُد
أتتنا تَهادَى على رقْبة من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ(٣)
تقول وتظهر وجداً بنا ووجدى وإن أظهرت أوجد
لما شقائي تعلقتكم وقد كان لى عنكمُ مَقْعَد(٤)
وكفّتْ سوابق من عبرةٍ على الخد جال بها الإثمد(٥)
فان التى شيّعتنا الغداة مع الفجر قلبي بها مُقصَد(٦)

وقد جاء فى خبره مع فاطمة هذه انه لما جاءها أرسلت بينها وبينه

(١) الجرس بالفتح الصوت (٢) تودع الموقد : خبت ناره وانطفأت
(٣) تهادى : تمايل في خفة ولين ــ والرقبة: الحذر والخوف (٤) كان لى مقعد عنكم : كان لى عنكم غنى (٥) الاثمد : حجر الكحل (٦) مقصد : مقتول . من قولهم : رماه فاقصده اذا قتله مكانه .

قال أبو حية النميرى :

رمين فأقصدن القلوب ولم تجد دماً مائراً الا جرى في الحيازم

سترا رقيقاً تراه من ورائه ولا يراها ، فجعل يعدّها حتى استنشدته ، فأنشدها هذه القصيدة . فاستخفها الشعر فرفعت الستجف ، فرأى وجهاً حسناً فى جسم ناعل ، فخطبها ، وأرسل إلى أمها وكانت معها بخمسمائة دينار ، فأبت وحجبته ، وقالت للرسول : لا تعد إلينا . فمرّ ذلك الفتاة ، فقالت لها أمها : قد قتلك الوجد به ، فتزوجيه !

قالت : لا والله ، لايتحدث أهل العراق عنى انى جئت ابن أبى ربيعة أخطبه . ولكن ان أتانى إلى العراق تزوجته .

ويقال انها راسلته وأوعدته أن تزوره فأجر بيته وأعطى المبشر مائة دينار . فأتته وواعدته إذا صدر الناس أن يشيّعها ، وجعلت علامة مابينهما أن يأتيها رسوله ينشدها ناقة له ضلت . فلما صدر الناس فعل . وقد قال فى وصف ذلك

قال الخليط غداً تصدّعنا ... أو بعده أفلا تشيّعنا [1]

أما الرحيل فدون بعد غدٍ ... فمتى تقول الدار تجمعنا [2]

لتشوقنا هندٌ وقد علمت ... علماً بأن البين يفزعنا

(١) الخليط : الجيرة الاعزاء الذين يخلطهم المحب بنفسه والتصدع : التفرق

(٢) تقول : معناها تظن في هذا البيت

عجباً لموقفنا وموقفها ... وبسمع تِرْبيها تراجعنا [١]
ومقالها سِرْ ليلةً معنا ... نَعهَد فان البين فاجعُنا [٢]
قلتُ العيون كثيرةٌ معكم ... وأظن أن السير مانعنا
لا بل نزوركمُ بأرضكمُ ... فيطاع قائلكم وشافعنا
قالت أشيءٌ أنت فاعلهُ ... هذا لعمرك أم تخادعنا
بالله حدِّث ماتؤملهُ ... واصدق فان الصدق واسعنا
اضرب لنا أجلا نَعُدّ لهُ ... إخلاف موعده تقاطعنا [٣]

* * *

وإنا لنعجب حين نرى الرجال يقدِّرون مصير الحسان من اتهم فيهجرون مكة فراراً من ذلك الشاعر الخليع : فقد وُلِدَ جل من بنى جُمح جارية لم يولد مثلها بالحجاز حسنا . فقال : كأنى اوقد كبِرَتْ فشبب بها عمر بن أبى ربيعة وفضحها ونوَّه باسمها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمت بمكة ! فباع ضيعة له بالطائف

ترباها مثنى ترب بالكسر وهي الحدينة ــ وتاربت الجارية الجارية خادنتها . قال كثير
تتارب بيضا اذا استلعبت ... كادم الظباء ترف الكباثا
نعهد : نأخذ عليك العهد والميثاق أن لا تنسانا بعد الفراق
نعد له : أى نحسب الايام لحلوله حتى اذا اخلفت قاطعناك

ومكة ورحل بابنته إلى البصرة ، فأقام بها ، وبتاع هناك ضيعة ، ونشأت ابنته من أجمل نساء زمانها .

ومات أبوها فلم تر أحداً من جُمَّح حضر جنازته ، ولا وجدت مُسعداً ولا مواسياً ، فقالت لمرضع لها سوداء : من نحن ؟ ومن أى البلاد نحن ؟ فخبرتها . فقالت : لا جرَمَ ، والله لا أقمت فى هذا البلد الذى أنا فيه غريبة . فباعت الضيعة والدار وخرجت فى أيام الحج ، وكان عمر يتقدم فى ذى الحجة فيعتمر ويُحل ، ويلبس ما شاء من الحلل والوشى ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القُطوع والسيراج ويرسل لِمَّته . ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق مُحرِّمات ، ويتلقى المدنيات إلى مرّ ، ويتلقى الشاميات إلى الكديد . فخرج يوماً للعراقيات فإذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تركب معها جارية سوداء . فقال للسوداء : من أنت ؟ ومن أين أتيت يا خالة ؟ فقالت : لقد أطال الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالَم : من تم ومن أين هم ؟ قال : فأخبرينى عسى أن يكون لذلك شأن . قالت : نحن من العراق ، فأما الأصل ومنشأ فمكة . وقد رجعنا إلى الأصل ورحلنا إلى بلدنا ، فضحك ، فلما نظرت إلى سواد ثَنِيَّتَيْه قالت : قد عرفناك . قال : ومن أنا ؟ قالت : عمر بن أبى ربيعة ! قال : وبِمَ عرفتنى ؟ قالت : بسواد

ثنيتيك وبهيئتك التى ليست إلا لقريش [١] . فانشأ يقول

أصبح القلب فى الحبال رهينا ... مُقصداً يوم فارق الظاعنينا
عَجِلت حُمّةُ الفراق علينا ... برحيل ولم نخف أن تبينا [٢]
لم يرعنى إلاّ الفتاة وإلاّ ... دمعها فى الرداء سحّاً سنينا [٣]
ولقد قلت يوم مكة سرًّا ... قبل وَشْكٍ من بينكم نوّلينا [٤]
أنت أهوى العبادِ قرباً ودلاًّ ... أو تنيلين عاشقاً محزوناً
قاده الطرف يوم مرّ إلى الحيْـ ... ـن جهاراً ولم يخف أن يحينا [٥]
فاذا نعجة تراعى نعاجاً ... ومَهاً بُهّج المناظر عِينا [٦]
قلت من أنتمُ فصدت وقالت ... أُمُبِدٌّ سؤالك العالمينا [٧]
نحن من ساكنى العراق وكنا ... قبله قاطنين مكة حينا

(١) سواد ثنيتى عمر بن أبى ربيعة لم يكن طبيعيا ؛ وانما عرض له حين ضربته الثريا بظاهر كفها ؛ وكان النساء اذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشر ، فاصابت الخواتيم ثنيتيه العليين فغضتا وكادتا تسقطان فقدم البصرة فعولجتا له فثبتتا واسودتا ، فشاع خبره وعيره بذلك خصومه من الشعراء (٢) حمة الفراق بالضم ما قدر وقضى

(٣) سنين : متدفق (٤) الوشك : الاسراع (٥) الحين بالفتح الهلاك

(٦) النعاج هنا بقر الوحش — والعين : الجميلات العيون (٧) معنى عجز هذا البيت كما في اللسان : أمُقَسِّمٌ أنت سؤالك على الناس حتى تعمهم ؟ من قولهم : أبد المال والعطاء اذا فرقه في القوم . وهو معنى قولها له : لقد أطال الله تعبك ان كنت تسأل هذا العالم : من هم ومن أين هم

قد صدقناك إذ سألت فمن أنـ ت عسى أن يجرّ شأنٌ شؤونا
ونرى أننا عرفناك بالنعـ ت بظنٍّ وما قتلنا يقينا
بسواد الثنيتين ونعتٍ قد نراه لناظر مستبينا

ولم يزل بها عمر حتى تزوجها ، وولدت له .

ويقال إنه أنشأ هذه القصيدة فى التشبيب برملة بنت عبد الله الخزاعية ، وإن الثريا بنت علىّ لما سمعت بها هجرته ، فى حديث سنعود اليه بعد فصول

* * *

ولقد نعلم أن مِلاح النساء كنّ يتحدثن عنه فى مناسك الحج فى لهفة وشوق . وكان يقدّر له أحياناً أن يسمع ما يلهجن به من ارتقاب غزله ، وانتظار لقياه ، فيضطرم قلبه ، وتلتهب أحشاؤه ، كلفاً بمن يتسافين على ذكره كؤوس النجوى والسِّرار . فقد روى أنه بَصُر فى منصرفه من المزدلفة بامرأة جميلة فى هودج ، وسمع عجوزاً معها تناديها: يا نَوار استتري ، لا يفضحك ابن أبى ربيعة . فاتّبعها وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمنى فى مضرب قد ضُرب لها ، فنزل إلى جانب المضرب ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، وإذا أحسن الناس وجهاً

وأحلامهم منطقا ، فزاد ذلك فى إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها فتعذر ذلك عليه ، وكان آخر عهده ، فقال فيها

علق النوّار فؤاده جهلا وصبًا فلم تترك له عقلا
وتعرّضت لى فى المسير فما أمسى الفؤاد يرى لها مِثْلا
ما ظبيةٌ من وحش ذى بقر تغذو بسقط صريمة طِفلا (١)
بألذّ منها إذ تقول لنا وأردت كشف قِناعها مهلا
دعنا فانك لامكارمةً تجزى ولست بواصل حبلا
وعليك من تبل الفؤاد وإن أمسى لقلبك ذكره شغلا

* * *

وفى الحق أن ابن أبى ربيعة لم يكن في حاجة إلى تصيُّد النساء ، فقد كنّ عليه أحرص ، وإلى تصيُّده أحوج ، وسنرى حين نعرض لاخباره مع هند بنت الحارث وسكينة بنت الحسين كيف كانت تشقى الرُّسل فى البحث عنه كلما حنت معشوقاته الى وجهه المشرق ، وحديثه الطريف ، فلنكتف الآن بالاشارة إلى تلك السيدة الاموية التى قدمت معتمرة قبل أوان الحج ، فمرت عليه وهى تطوف ، وكان فى نفر من

(١) ذو بقر : واد بين أخيلة حمى الربذة ــ وسقط الصريمة ، منتهاها ــ والصريمة الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر

بنى مخزوم ، يتحدثون وهم جلوس ، وقد فرّعهم طولاً ، وجهّرهم جمالاً وبهرهم بياناً ، فمالت اليهم ، ونزلت فأطالت معهم الحديث ، ولم تنصرف حتى ظفرت بقلب ذلك الشاعر الجميل . ولم يزل يتردد اليها إلى أن انقضت أيام الحج فرحلت الى الشام . وفيها يقول

تأوّب ليلى بنصب وهمّ ... وعاودت ذكرى لأم الحكم[1]
فبتّ أراقب ليل التما ... م ، من نام من عاشق لم أنم
فإما تريني على ما عرا ... ني فعيف القيام شديد السقم
كثير التقلّب فوق الفرا ... ش ما إن تُقل قيامي قدم
بآنسةٍ طيّب نشرُها ... هضيم الحشا عذبة المبتسَم[2]

وفى هذه الحوادث التى سقناها غنًى لمن أراد أن يُقدّر إلى أى حد كان ابن أبى ربيعة يتلمّس أسباب الهوى ويترقب مواسم الجمال ، وفى هذه الحياة المرِحة ، الحافلة بفُرص اللهو ومُتَع الشباب ، قال ذلك الشعر الحيّ الذى يوقظ غافيات المنى وهاجعات الاهواء . فلننتقل الى الحديث عن طائفة من معشوقاته بشىء من التفصيل ليتم لنا ما أردنا من عرض الظروف التى قضت بأن يقف حياته على الحب ، وشعره على النساء[3]

(١) النصب بالفتح والضم : الشر — (٢) النشر الرائحة — وهضيم الحشا ضامرة البطن (٣) أهم مرجع لهذا الفصل هو الجزء الاول من كتاب الاغانى